

ما بُني على خطأ فهو خطأ

د. حمزة بن قبلان المزيني

حدث في إهلال شهر شوال هذه السنة ما يحدث دائما من مسارعة بعض "الواهمين" إلى الشهادة برؤية الهلال وهو في وضع يستحيل أن يرى فيه. فقد شهد أولئك نفر القليل الذين اعتادوا مثل تلك الشهادات الواهمة بأنهم رأوه على الرغم من تقرير الحسابات الفلكية الدقيقة بأنه لن يمكث بعد غروب الشمس في المنطقة التي زعموا رؤيته منها إلا دقيقة واحدة. وهو مكث لا يمكن معه رؤيته إطلاقا.

ويمكن الاطلاع على كثير من مزاعم عبد الله الخضيرى، الذي يتزعم أولئك الواهمين دائما، في التقرير الصحفي الذي نشرته صحيفة الرياض (2011/9/2م) عن محاضرة ألقاها بعد عيد الفطر هذه السنة. وهي مزاعم تناقض ما كان يدعيه من قبل بأنه لا يعتمد إلا على الرؤية البصرية المجردة وحدها. فقد ادعى في تلك المحاضرة بأن له معرفة بالحساب الفلكي، وأن له أبحاثا فيه، وأن بينه وبين وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) تواسلا علميا. وعلى الرغم من قوله في هذه المحاضرة بأن هناك تواصل بينه وبين المتخصصين في الفلك في مدينة الملك عبد العزيز إلا أن من المعروف عنه أنه يتهرب في كثير من الأحيان من مرافقة اللجنة العلمية التي تتراءى الهلال في مناطقه ويشارك فيها بعض المتخصصين من تلك المؤسسة العلمية السعودية.

وتكفي بعض تلك المزاعم لنزع الثقة المطلقة التي تضيفها بعض المؤسسات الدينية الرسمية في المملكة عليه بوصفه "رائيا" مجربا صدوقا يساعد تلك المؤسسات على "التمسك بالسنة" من حيث اعتماد الرؤية البصرية المجردة في رؤية الهلال.

ولم تعد مثل هذه الشهادات الواهمة مستغربة الآن؛ إذ تكررت كثيرا وأخذ بها على الرغم من مخالفتها لما يقرره الفلكيون في كثير من السنين. أما المستغرب فعلا فهو أن يدافع بعض المسؤولين في بعض المؤسسات الدينية الرسمية عن هذه الشهادات الواهمة بطرق مستغربة. وهذا الدفاع هو ما يشجع هؤلاء الواهمين على الاستمرار في أوهامهم.

ومن أمثلة هذا الدفاع المجاني ما ورد في بيان المحكمة العليا، المكلفة الآن بإهلال الأهلة، عن دخول شهر رمضان 1432هـ من قولها: "بل قد ثبت بشهادة عدد من الشهود العدول أن القمر غاب هذه الليلة قبل غروب الشمس" (أي في مساء السبت 1432/8/29هـ).

ويثير هذا القول عددا من الأسئلة: فمن هم هؤلاء الشهود "العدول"؟ أهم الأفراد أنفسهم الذين يزعمون أنهم يرون الهلال في غير أوانه، على رأسهم عبد الله الخضيرى - ومنها شهادتهم العام الماضي، بأنهم رأوا الهلال قبل غروب الشمس؟

وهل تعتقد المحكمة، فعلا، أن بإمكان أحد أن يرى "الهلال"، بالعين المجردة، وهو يغرب قبل غروب الشمس؟

وهل يعني هذا أن المحكمة العليا تطلب من المترئين أن يتراءوا الهلال قبل غروب الشمس، مثلما تطلب منهم أن يتراءوه بعد غروبها؟ وهل يعني أن المحكمة العليا تثق بهؤلاء الواهمين في وقت الترائى وفي غير وقت الترائى، على السواء، مما يعني أن الثقة بهم مطلقة بغض النظر عن مخالفتها للواقع؟

وإذا ثبت أن المحكمة العليا تسمى ما يزعم هؤلاء الواهمون بأنهم رأوه قبل غروب الشمس "هلالا" فإنها بذلك تخالف تعريف ابن تيمية لـ "الهلال". فهو يقول إنه لا يسمى "هلالا" إلا إذا بان للناس بعد غروب الشمس في أول الشهر.

لكن ألا يمكن الظن بأن المحكمة الموقرة إنما تشير بذلك إلى ما قرره الفلكيون عن وضع الهلال في ذلك المساء؟ وإذا كان هذا هو ما قصدته المحكمة فهل يعني هذا أنها تثق بهم وتعدهم وترضى بقولهم وتستأنس به. فإذا كان الأمر كذلك فلماذا، إذن، تثق بهم في هذه الحالة ولا تثق بهم حين يقررون استحالة رؤية الهلال بعد غروب الشمس في بعض الأحيان؟

ومن الواضح أن مثل هذه الثقة بالفلكيين مستبعدة؛ ذلك أن المحكمة العليا لا تصرف نظرها عن تقاريراتهم العلمية وحسب، بل إن بعض منسوبيها الذين ترسلهم لمراقبة الفلكيين في رصد الهلال يشككون في قدرة الوسائل الحديثة على رصد الهلال. ومن ذلك ما صرح به القاضي عبد العزيز

العمر لصحيفة "الوطن" بقوله: "شاركنا لأول مرة لنطلع على ما يفعله الإخوة في الجمعية (جمعية جدة الفلكية التي كانت ترصد هلال رمضان) ونرصد معهم الهلال ومنزله ومن ثم إثبات الرؤية لو حدثت. وأشار إلى أن المشكلة التي تواجه الرؤية عبر أجهزة الفلكيين هي أن الأجهزة ليست معدة خصيصاً لرصد القمر بل مخصصة لرؤية النجوم وتحركاتها، حيث إن الجهاز يرى الضوء في الظلام والصحيح في رؤية الهلال ينبغي أن تكون رؤية الضوء في الضوء وهذا ما يحدث في الرؤية المجردة" (الوطن، 2011/8/1م)!

ويبلغ هذا التشكيك حداً بعيداً من الجرأة، وهو قول غير صحيح إطلاقاً، ذلك أن من الممكن رؤية الهلال عن طريق التسلوبات في النهار بسهولة تفوق قدرة العين المجردة.

ولم يقتصر الدفاع عن هؤلاء الشهود الواهمين على من تعودنا منهم الدفاع عن هؤلاء من حيث المبدأ، بل تجاوز ذلك إلى بعض أشهر الذين كانوا يشككون في كل سنة تقريباً بشهادة هؤلاء.

ومن أبرز هؤلاء المدافعين هذه السنة عن هؤلاء الواهمين الشيخ عبد الله بن منيع، عضو هيئة كبار العلماء والمستشار في الديوان الملكي، المعروف باطلاعه على الحسابات الفلكية ودفاعه عن الاستثناس بها في حال نفي دخول الشهر، في الأقل، إذا قرر الفلكيون أن القمر يغرب قبل الشمس. فقد نسبت إليه صحيفة الحياة أنه: "عبر عن استغرابه من تشكيك الجمعية الفلكية في محافظة جدة حول رؤية هلال شوال على رغم ثبوته لدى مواطنين ثقة، بعد أن سجلوا شهاداتهم لدى المحاكم الشرعية المختصة. وقال: "أتساءل عن كيفية إجماع الفلكيين على أن القمر قد غاب بعد الشمس بدقائق لا قبلها، ولطالما هو غاب بعدها بدقائق وجاء المسلمون العدول الأتقياء الصالحون الذين شهدوا برؤية الهلال، ما يعني أن هذه الرؤية تعتبر مقبولة شرعاً لأنها منفكة عما يكذبها". ولفت إلى أن مثل هذه المعلومات المخالفة لرأي المسلمين هي من "الشائعات" التي لا تجوز شرعاً، وهي من الأقوال الخاطئة والباطلة، مشدداً على أن رؤية "الهلال" المعلنة هي شرعية وصحيحة" (الحياة، 2011/9/1م).

واللافت أن من يصفهم الشيخ المنيع في هذا التصريح بأنهم "عدول أتقياء صالحون" هم الأفراد أنفسهم الذين كان يصفهم، هو نفسه، في السنوات الماضية، بأنهم "واهمون"! فكيف يكون هؤلاء النفر أنفسهم في بعض السنوات "واهمين" وفي هذه السنة "عدولا"؟

ويقصر الشيخ المنيع - كما يبدو - عبارة "منفكة عما يكذبها" على الحالة التي يغرب فيها القمر قبل الشمس. أما إذا غرب القمر بعد الشمس فيرى أنه ليس هناك ما يمكن أن "يكذب" شهادة من يشهد برؤية الهلال. بل لقد تجاوز الشيخ المنيع ذلك كله إلى القول بأن هؤلاء "الواهمين" ربما يتمتعون بقدرات فوق بشرية. ومن ذلك قوله: "فأكثر علماء الشرع ومحققهم لا يعتبرون القول بعدم امكان الرؤية مع وجود الهلال بعد غروب الشمس لأن هذا القول معارض بالعقل والحس والواقع أما العقل فلاشك أن كل مسلم يعتقد قدرة الله تعالى على انعامه لبعض عباده بقوة إبصار يرى الهلال مجاوراً للشمس في النهار يمينها أو يسارها أو خلفها أو أمامها وقد رأينا بعضاً من اخواننا وهم يشاهدون النجوم في النهار ويعينونها بأسمائها هذه الثرياء وهذه الجوزاء وهذا المرزم وغيرها فقدره الله لا حد لها ولا يجوز تحديدها" (الرياض، 2011/9/4م).

لكن المتخصصين في علم الفلك ينكرون وجود هذه القدرات لتعذر القدرة على رؤية النجوم والهلال بالعين المجردة في النهار لأسباب فيزيائية معروفة تتصل بالطريقة التي تنتشر بها أشعة الشمس لتحجب النجوم والكواكب الأخرى.

وعلى الضد مما يقوله الشيخ المنيع فهناك دليل على أن شهادة هؤلاء الواهمين برؤية هلال شوال ليست "منفكة عما يكذبها". ويتمثل هذا الدليل في زعم عبد الله الخضيرى بأن الهلال، الذي يزعم أنه رآه، "بقي بعد غروب الشمس أربع دقائق"، في ذلك المساء (في محاضرتة نفسها المشار إليها أعلاه). وهذا يخالف الواقع الذي تؤكد المرصد الفلكية في العالم كله بأن الهلال لم يمكث أكثر من دقيقة بعد غروب الشمس في المكان الذي يرصد منه الخضيرى.

وهذا الدليل كاف لإقناع الشيخ المنيع بأن شهادة الخضيرى ورفاقه "لا تتفك عما يكذبها".

ومن لوازم هذا "التعديل" المجاني لهؤلاء الواهمين والأخذ بأوهامهم عدمُ النظر إلى ما يقوله المتخصصون في علم الفلك - من السعوديين وغيرهم من المسلمين - عن هذه المسألة من حيث المبدأ. والأخطر من ذلك أن هذا ربما يؤول إلى الحكم على هؤلاء الفلكيين الذين يستخدمون أدق الأجهزة العلمية بأنهم ليسوا "تقات ولا عدولا"، إن لم نقل أشياء أخرى، في ما يقولونه من عدم إمكان رؤية الهلال. بل لقد حدث هذا بالفعل إذ وصفهم بعض المسؤولين عن المؤسسات الدينية الحكومية، بغير بينة، بأنهم "كذابون ومفترون".

وقد تعودنا من الشيخ عبد المحسن العبيكان، المستشار في الديوان الملكي، أن يشكك، كل عام تقريبا، في مثل هذه الشهادات الواهمة. وقد كتب مقالا طويلا نشرته الصحف السعودية يبين في كل فقرة منه عدم إمكان تلك الشهادات (الرياض، 2011/9/5م). ومع ذلك كله يعود في نهاية المقال إلى القبول بقرار المحكمة العليا احتجاجا بقوله صلى الله عليه وسلم "الصوم يوم تصومون والفطر يوم تفترون والأضحى يوم تضحون".

وقوله صلى الله عليه وسلم هذا يؤكد عذر الله لعباده إذا استفرغوا الجهد في التأكد من ترائي الهلال. لكن - كما يشير الشيخ العبيكان: "لا يصح أن يفهم عاقل أن النبي صلى الله عليه وسلم يأمرنا بأن نصوم أو نفطر برؤية وهمية، فإن من يظن هذا يتهم الشريعة الإسلامية بأنها تبني أمورها على الوهم والخيالات".

لذلك كان المنتظر من الشيخ الفاضل أن ينتهي إلى ما يؤدي إليه مقاله منطقيا وهو إبطال شهادة هؤلاء الواهمين لأن المحكمة العليا لم تستفرغ الجهد في ترائي الهلال، بل لقد تركت - عن عمد، وبوعي - ما بأيديها من الأدلة الموثوقة التي تؤكد عدم إمكان رؤية الهلال في تلك الليلة وتعلقت بشهادة مستحيلة.

فالنتيجة المنطقية، إذن، في ما يخص هلال شوال هذه السنة هي أن ما بني على خطأ فهو خطأ. ويعني هذا أنه ينبغي على المحكمة العليا أن تعود عن قرارها بإدخال الشهر لاعتماد ذلك القرار المتعجل على شهادات غير صحيحة.

ولا يعني هذا أن فطر المسلمين غير صحيح. ذلك أن دخول شهر شوال هذه السنة كان صحيحاً، في الأقل، بحسب معياري مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية اللذين يشترطان لإهلال الهلال اقترانَ الشمس والقمر قبل غروب الشمس في سماء المملكة وبقاء القمر بعد غروب الشمس ولو لدقيقة واحدة في أفق مكة المكرمة.

ويمكن أن يكون ما حدث هذه السنة من بلبلة نشأت عن شهادة الواهمين دافعا لأن تقوم المحكمة العليا في المستقبل بواجبها الشرعي بعيدا عن الاعتماد على مثل هؤلاء الشهود الواهمين، وأن تستأنس بآراء العلماء المسلمين المتخصصين في الفلك. ومما يوجب هذا الاعتماد أن هؤلاء المتخصصين - من السعوديين وغيرهم من المسلمين - ليسوا "كذابين ولا مفتزين"، وهم أهل للنقطة كما يقرر الواقع دائما، ويمكن التأكد مما يقولونه بطرق علمية متفق عليها علميا.